الباب الرابع

ظهر القومية العربية

١ — يقظة القومية العربية فى مطلع القرن العشرين

كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بمعنى الكلمة ، ولذلك كانت تعامل المسلمين من العرب معاملة تختلف عن معاملتها للمسيحيين ، ولهذا السبب كان ارتباط العرب بالدولة العثمانية يختلف باختلاف أديانهم . فكانت الخدمة العسكرية والمناصب مقصورة على المسلمين . ويمكننا أن نقول إن العرب المسيحيين كانوا يعيشون على هامش حياة الدولة العثمانية ، شأنهم شأن سائر العناصر المسيحية التابعة للسلطنة العثمانية من أروام وأرمن وبلغار، ولذلك كانوا يعتبرون الدولة غريبة عنهم ، ومتسلطة عليهم . كما كان المسيحيون أكثر اتصالا بالغربيين والحضارة الأوروبية . ولهذه الأسباب كلها، كان من الطبيعى أن تنشأ فكرة القومية عند المسلمين على أنماط تختلف عن أنماط نشأتهم بين المسيحيين .

كان العرب المسلمون التابعون للدولة العثمانية ينظرون إلى التاريخ بنظرات إسلامية بحتة ، فيزعمون أن الخلافة الإسلامية تسلسلت من الراشدين إلى الأمويين والعباسيين فالعثمانيين ، ولذا لم يفكروا فى (تاريخ الأمة العربية)، وكانوا يرون أن التاريخ العثمانى تتمة للتاريخ الإسلامى العام . ولكن فى مطلع القرن العشرين بدأت يقظة العرب ، فبدأ البعض يشك فى اعتبار السلاطين

العثمانيين خلفاء للمسلمين إذ أنه لا يوجد نسب قرشى، ونادى البعض أن الخلافة الإسلامية يجب أن تعود إلى العرب .

قام بعض العرب يلفت النظر إلى الفساد المنتشر فى الدولة العثمانية وطالبوا بإصلاح أحوال البلاد العربية ، و بدأوا يقارنون بين الولايات العربية وسائر الولايات العثمانية وخرجوا بنتيجة هى أن حقوق العرب مهضومة .

ظهرت تيارات مختلفة بين العرب المسلمين فى مطلع القرن العشرين : جماعة تطمع فى قيام خلافة عربية ، وجماعة تطالب بإصلاح أحوال البلاد العربية ، وجماعة تدعو إلى إصلاحات عامة فى الدولة العثمانية ، وجماعة رابعة تطالب بحقوق مختلفة للعرب ، وجماعة خامسة ترى انفصال البلادالعربية عن الدولة العثمانية وتأسيس دولة عربية مستقلة .

أما العرب المسيحيون فقد شعروا أن الدولة العثمانية غريبة بالنسبة إليهم ، وكانت نسبة المتعلمين بينهم كبيرة ، ولفتوا الأنظار إلى أن الأمة العربية أمة عريقة قديمة ، وكان لها حضارة قبل الإسلام ، وهذه الحضارة لم تكن دينية بحتة ، ودعوا إلى ايقاظ الأمة العربية . ولذا نجد أن التفكير فى (القومية العربية) بدأ عند العرب المسيحيين قبل أن يبدأ عند المسلمين .

ظهرت الدعوة إلى قيام خلافة عربية فى كتاب (أم القرى) الذى صدر باللغة العربية فى مصر سنة ١٣١٦ هـ كما ظهرت الدعوة إلى إنشاء دولة عربية مستقله فى كتاب (نهضة الأمة العربية) الذى صدر فى باريس باللغة الفرنسية سنة ١٩٠٥ م .

أما كتاب (أم القرى) فكان من تأليف عبد الرحمن الكواكبى . كان الكواكبي عربيا مسلما من أسرة سورية ، ولد عام ١٨٤٩ فى حلب ، كان فى بدء حياته صحافيا وقانونيا ، ثم انتقل إلى الوظائف الحكومية، ولكن المبادئ الحرة أدت به إلى السجن ، فلما أطلق سراحة سنة ١٨٩٨ سافر إلى مصر . ثم زار بلاد الصومال وزنزبار واليمن حيث عاد إلى القاهرة ، وفيهاتوفى سنة ١٩٠٣ وهو فى الرابعة والخمسين من عمره. كان الكواكبى يعقد جلسات يومية فى مقهى (سبلندد بار) بالقاهرة ، تضم جماعات من المسلمين والمسيحيين واليهود ، لأنه كانه يطبق ما يدعو إليه كثيرا وهوأن الوطنية فوق الفوارق الدينية .

حوى كتابه الأول (أم القرى) مجموعة من الآراء التى تبحث فى مصير الإسلام ، وفيه تخيل أن اثنين وعشرين شخصا يمثلون العلماء والفقهاء فى اثنين وعشرين قطرا من أقطار الإسلام اجتمعوا فى مكة لأداء فريضة الحج ، وبعد تبادل الآراء فى أكثر من اثنتى عشرة جلسة اتفقوا على تشكيل جمعية غايتها بعث الإسلام . ويتألف القسم الأكبر من الكتاب من مضابط الجلسات الخيالية ، ثم قوانين الجمعية الجديدة ، وفى آخر الكتاب يتناول الكواكبى موضوع الخلافة .

أما كتاب الكواكبى الآخر فهو (طبائع الاستبداد) ويضم مقالاته عن الاستبداد التى سبق له نشرها فى الصحف المصرية مع بعض الإضافات ، ويعكس هذا الكتاب أيضا تأملاته وعمق تفكيره .

يحتوى الكتابان تحليلا عميقا لحالة التداعى التى بلغها العالم الإسلامى بصورة عامة وأجزاؤه العربية بصفة خاصة . وقد تحدث فى كتاب (أم القرى) عن أسباب تأخر العالم الإسلامى ، ثم دعا إلى إقامة خلافة عربية فى مكة المكرمة ، ونادى بأن (العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية) ، ثم انتقد الحكم العثمانى وأشار إلى هضم حقوق العرب ، ثم قال : « من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالى تركيا على استقلال نوعى و إدارى يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم » .

أبرز آراء الكواكبى تفريقه ما بين الحركة العربية والحركة العامة التى تستهدف الوحدة الإسلامية والبعث الإسلامى ، والتى تولى جمال الدين الأفغانى إثارتها ثم سخرها عبد الحميد لأغراضه الخاصة. ومما لاشك فيه أن الكواكبى قد تأثر بسلفه ، ولكن بينما كان جمال الدين يعتبر عالم الإسلام جميعه ميدانا واحدا يجب توحيده تحت حكم خليفة واحد ، ولايهتم بجنس ذلك الخليفة سواء أكان تركيا أم أفغانيا أم مصريا مادام قويا وسيدا فى داره، كان الكواكبى يفرق تفريقا واضحا ما بين العرب والأجناس الإسلامية الأخرى . وعلى هذا، فإن الكواكبى فى الوقت الذى أيد فكرة الوحدة الإسلامية تأييدا تاما ، راح يدعو إلى الغاء حق السلطان فى الخلافة ، و إلى المناداة بتنصيب خليفة فى مكة ينتمى إلى قريش .

أما كتاب (يقظة الأمة العربية فى آسيا) فهو من تأليف (نجيب عازورى) وهو عربى نصرانى ظهر نشاطه فى الأعوام الأخيره للعهد الحميدى، وكان المؤلف

قبل أن ينتقل إلى فرنسا من الموظفين الإدريين فى الدولة العثمانين،وكان يدرك أحوال الدولة العثمانية تماما فوصف أحوال البلاد العربية ، ودعا إلى توحيد الكنائس الكاثوليكية تحت اسم (الكنيسة الكاثوليكية العربية) ، ودعا إلى انفصال الولايات العربية من الدولة العثمانية ، على أن تكون الحجاز مقرا لخلافة إسلامية عربية ، وأن تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة ، وهى الأقطار العربية الخاضعة للدولة العثمانية ، أما مصر فقد كانت واقعة تحت نير الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ ، وكان عزورى يدرك تماما أن الانجليز لن يسمحوا لمصر أن تفلت من بين أيديهم لتنضم إلى شقيقاتها العربيات .

بدأ عزورى نشاطه فى باريس سنة ١٩٠٤ حيث شكل جمعية عرفت باسم (رابطة الوطن العربى) هدفها تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الأتراك ، وقد وجهت عدداً من النداءات الملتهبة تحض فيها العرب على القيام بالثورة . وفى السنة التالية أصدر كتاب (يقظة الأمة العربية) باللغة الفرنسية . وبعد سنتين أصدر بالفرنسية مجلة شهرية اسمها (الاستقلال العربى) ظهر أول عدد منها فى ابريل سنة ١٩٠٧ وكان هدفها نشر المعلومات عن بلاد العرب وإثارة الاهتمام بقضية تحريرها ، وتوقف صدور هذه المجلة عند مانشر الدستور العثمانى فى يوليو ١٩٠٨ .

هذه هى التيارات العربية التى قامت فى البلاد العربية فى مطلع القرن العشرين ، قبل الانقلاب الذى حدث فى تركيا سنة ١٩٠٨ . وهذه التيارات

ما قامت إلا لتقضى على الجامعة الإسلامية وتعمل على إحياء القومية العربية .

فى تلك الفترة ، انقطعت مصر عن الحركة العربية وأنشأت لنفسها سياسة قومية خاصة بها ، وقد بدأ هذا التحول فى أوائل الثلث الأخير من القرن الماضى فى عهد الخديوى إسماعيل الذى أثار سخط المصريين بإسرافه وتبذيره . كانت الحركة الفكرية فى مصر تسير جنبا إلى جنب مع الحركة الفكرية فى الشام ، فيما يتصل ببعث الثقافة العربية ،ونشر الوعى القومى العربى فلما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ نشأ تيار جديد من الأفكار غايته إجلاء جيش الاحتلال البريطانى . فنشأت القومية المصرية وأصبحت منفصلة عن الحركة العربية العامة ، وعمل الاستعمار البريطانى على تنمية هذا الاتجاه ، ولكن هذا لم يمنع وجود روابط ثقافية وروحية بين مصر والبلاد العربية الأخرى .

إن وقوع مصر خارج نطاق حكم عبد الحميد جعل القاهرة مركزاً من مراكز التآمر ضد استبداده ، وكانت باريس المركز الثانى . وفى هاتين العاصمتين أخذت جماعة من اللاجئين السياسيين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (تركيا الفتاة) ، ونجحت مؤامرتهم فى ٢٤ يوليو ١٩٠٨

كانت نهاية حكم السلطان عبد الحميد إيذانا بغروب شمس (الجامعة الإسلامية) وشروق شمس (القومية العربية) . فقد ساعد استبداد وظلم عبدالحميد واضطهاده الأقليات الدينية على نمو الشعور القومى عند العرب. وكانت الفترة التى انقضت بين سقوط عبد الحميد فى سنة ١٩٠٨ وقيام الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فترة حافلة بالنشاط القومى المركز ضد السيادة التركية .

كان أمل العرب فى الدستور الذى أعلنه الأتراك سنة ١٩٠٨ عظيما ، فقد أملوا أن يسوى الدستور بين الترك والعرب ، ولكن سرعان ماخاب أملهم . فقد قام على أساس (الدولة الطورانية) التى تحيى مجد جنكيزخان وتيمورلنك ولم يعبأ واضعوه بالروابط التى تربط تركيا بالعروبة والإسلام . فوقف العرب فى العراق واليمن وسوريا ولبنان ومصر من تركيا وجها لوجه معلنين عروبتهم وقوميتهم .

استولت (جمعية الاتحاد والترقى) على الحكم فى استنبول سنة ١٩٠٨ ، وبدأت الصحف التركية بالإشادة بأمجاد الطورانيين وشتم العرب ، وتدعو إلى تطهير اللسان التركى من الألفاظ العربية ، ورفع أسماء الخلفاء الراشدين من المساجد . وأصبح واضحا أن بقاء العرب تحت سيطرة الترك معناه افناء القومية العربية ولغة العرب ، ولذا بدأ العرب يدعون إلى استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية .

كانت ثورة العرب على الحكم العثمانى عند إعلان الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ تدل تماما على ابتعاد العرب عن (الجامعة الإسلامية) واقترابهم من (الجامعة العربية) ، فقد انضمت تركيا إلى ألمانيا وبدأ الأتراك يقتلون رجالات العرب صبرا ، وينفون الأسر العربية الكريمة إلى الأناضول تنفيذاً لسياستهم القاضية بتتريك العناصر غير التركية بالقوة . وكان على العرب فى الدولة العثمانية أن يختاروا بين أمرين لاثالث لهما :

أولا : التمسك بالجامعة الإسلامية ، والاغضاء عن فظائع الأتراك ، والسكوت عن مذابحهم،على أن تسوى شئون العرب معهم بعد انتهاء الحرب.

ثانيا : التخلى عن الجامعة الإسلامية ، والثورة على الأتراك ، ومحاربتهم فى جانب الحلفاء .

كان اتباع الخطة الأولى معناه القضاء المبرم على العرب وقوميتهم ولغتهم ، لأنه كان من المستحيل زحزحة الأتراك الاتحاديين عن سياستهم التركية والطورانية ، كما كان هؤلاء لا يعترفون باللغة العربية فى الحكومة والمدارس . وكان الأتراك لا يعترفون بكيان سياسى أو قومى للشعب العربى . وكان الاتحاديون يعدون العرب قوما يجب أن يتركوا أو يفنوا . ومن المعروف أن ألمانيا كانت تطمع فى العراق وفى قسم من الأناضول،وأن خط بغداد الحديدى كان الأداة الكبرى لتطبيق سياسة ألمانيا الاستعمارية . وكان هناك كثير من العرب ممن يخافون على قوميتهم العربية من أطماع ألمانيا .

رأى العرب أنهم إذا انتصرت ألمانيا وتركيا فمصير الشام والعراق يكون إلى التتريك ، و إلى التعرض للنفوذ الاستعمارى الألمانى . ولكنه إذا انتصر الحلفاء فجزيرة العرب تستقل ، حيث إنه ليس للحلفاء مطمع سياسى فى معظم أجزائها ، أما الشام والعراق فقد يستقلان ، و إن لم يستقلا فإن سكانهما يحتفظون على الأقل بكيانهم القومى و بلغتهم العربية ريثما يتمكنون من الاستقلال . كما أن فرنسا وانجلترا الطامعتين فى الشام وفى العراق ليس لهما كالترك مطمع قومى فى هذين القطرين .

ظهرت فى تلك الفترة عدة جمعيات ونوادٍ اتخذت كلها صفة عربية ، و بعدت عن الصبغة الإسلامية ، مثل جمعية النهضة العربية ، والمنتدى الأدبى ،

والجمعية القحطانية ، والجمعية العربية الفتاة ، وجمعية العهد، ثم عقد المؤتمر العربى فى باريس سنة ١٩١٣ .

تأسس المنتدى الأدبى سنة ١٩٠٩ فى أسطنبول من طلاب المدارس العالية العرب ، فوثق صلات الجاليات العربية ، وأفهم الأتراك أن العرب نصف الدولة فلا يجوز إهمال حقوقهم ، ولذا أغلق الأتراك النادى سنة ١٩١٥ . أما الجمعية العربية الفتاة فتأسست سنة ١٩١١ وكانت جمعية سرية قومية عربية تسعى لاستقلال العرب . أما جمعية العهد فتأسست سنة ١٩١٣ وهى جمعية عسكرية قومية عربية سرية ألفها الضباط العرب المنتسبون إلى الجيش العثمانى، وكان غرضها الأساسى الحصول على إدارة لا مركزية أو على استقلال داخلى لبلاد العرب ضمن نطاق الدولة العثمانية .

عقد المؤتمر العربى فى باريس سنة ١٩١٣ ، وبحث المؤتمر حقوق العرب فى الدولة العثمانية ، واتخاذ اللامركزية قاعدة لإدارة ولاياتها ، ومقاومة احتلال الدول الاستعمارية. قرر المؤتمر : مطالبة الدولة العثمانية بالاعتراف بحقوق العرب السياسية ، وإعلان الإدارة اللامركزية ، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية ، واشتراك العرب فى إدارة الحكومة المركزية فى العاصمة ، وأن يستخدم الجنود العرب فى ولاياتهم فى غير أيام الحرب .

بدأت الثورة العربية الكبرى فى الحجاز فى سنة ١٩١٦ ، وهى فى الواقع ثورة (القومية العربية) على (الجامعة الإسلامية) التى كانت تدعو الدولة

العثمانية إليها . ومن أسباب هذه الثورة الفظائع والجرائم الوحشية التى اقترفتها الحكومة التركيه فى بلاد الشام خلال الحرب العظمى الأولى ، وجعلت القائد جمال باشا منظما ومنفذا لها . وهـذه المذابح تبين ما كان الأتراك الاتحاديون يبيتونه للعرب ، تلك السياسة التى أساسها (القومية التركيه) وتتريك العرب بالقوة . فقد بدأ جمال باشا فى أول سنة ١٩١٥ بتشتيت شمل الضباط العرب فوجههم إلى جبهات القتال فى الدردنيل وجبال القوقاز، ثم اعتقل خيرة شباب العرب ودفع بهم إلى محكمة عسكرية ، فحكمت عليهم بالقتل ، ونفى مئات من الأسر العربية الكبيرة إلى الأناضول بغية تتريكهم فيها ، واتخذ سياسة تجويع عرب الشام ومات مئات الألوف من العرب جوعا .

كانت الخطة الحربية التى وضعتها القيادة العثمانية — بالاتفاق مع الألمان — تعود بأشد الضرر على الأقطار العربية . فقد أرسل العثمانيون الجنود العراقيين إلى قافقاسيا فى شمال شرق الأناضول ، فمات معظمهم نتيجة البرد القارس . كما أن هـذه الخطة أدت إلى أن تركت العراق محروما من حامية قوية . ولذلك عندما أرسل الإنجليز من الهند جيشا لامتلاك البصرة، استطاع الإنجليز احتلال جنوب العراق بسهولة ، ثم تقدم نحو الشمال رويدا رويدا . واستلزمت خطة القيادة العثمانية حشد الجيوش وتعبئتها فى سوريا وفلسطين ، وكانت تتطلب اجتياز صحراء النقب مع شبه جزيرة سينا ، وكانت تهدف إلى فتح مصر وطرد الإنجليز منها . أخذت القيادة العامة العثمانية تحشد الجيوش فى سوريا لهـذا الغرض ، وعهدت بقيادة هذه الجبهة إلى وزير البحرية جمال باشا ، وأعطته

سلطة مطلقة فى جميع الشئون العسكرية والإدارية والمالية . وكان جمال باشا هذا أحد الثلاثة الذين يسيطرون على شئون الدولة والحرب سيطرة تامة، وكان معروفا بميوله الطورانية ، فقد كان يدعو إلى القومية التركية، ولا شك أن هذا باعد كثيرا بينه و بين العرب . وحاول جمال باشا أن يستميل إليه العرب ، فكان يتشدق دائما بسياسة « استمالة القلوب » و « جمع الكلمة » ، و يستحث همم العرب لخدمة « الغاية المقدسة » التى تسعى إلى تحقيقها الحكومة التركية بواسطة الجيش . غير أنه بعد مرور نحو سنة ، بدأ سياسة الارهاب ، والاعتقال ، والقتل ، والنفى ، وراح ضحية ذلك كثير من العرب المتعلمين ، من بينهم عبد الحميد الزهراوى الذى ترأس المؤتمر العربى المنعقد فى باريس وعضو مجلس الأعيان العثمانى . وتقدم إلى جمال باشا كثير من رجالات العرب بالنصائح ـ ومنهم الشريف حسين ـ ليكف عن هذه السياسة دون جدوى.

هذا الإرهاب أزال الثقة من نفوس العرب بوعود الأتراك، ورأى العرب أنه لا سبيل إلى تفاهم جدى ، مادام الأتراك ينقضون اليوم ما كانوا أبرموه أمس . و بدأ العرب يقولون : لابد أن تنتهى الحرب بانتصار أحد الطرفين . و إذا انتصرت الدول المتحالفة استولت جيوشها على بلادنا ، وسينسحب الأتراك منها ، وسنبقى تحت رحمة المستولين ، لكوننا محرومين من كل أنواع التشكيلات الإدارية والاجتماعية والقومية التى تحفظ كياننا . وأما إذا انتصر الأتراك ، فسيفعلون بنا أضعاف ما كانوا يفعلونه قبلا ، وسيسترسلون فى سياسة التتريك ، فيحرموننا من حقوقنا القومية ، و يسعون للقضاء على قوميتنا .

فلابد لنا من القيام بتشكيلات قومية ، تضمن لنا الحياة ، بين هذين الخطرين الداهمين . ولذا نستطيع أن نقول إن الثورة العربية التى أعلنها الملك حسين فى أواخر السنة الثانية من الحرب جاءت موافقة لآراء العرب .

هذه الثورة التى بدأت من مكة المكرمة ، تحت زعامة أمير مكة، لم تكن ثورة حجازية ، بل كانت ثورة عربية بكل معنى الكلمة ، إنها كانت ترمى إلى استقلال الولايات العربية بأجمعها، وكانت تصبو إلى تكوين دولة عربية جديدة موحدة ، تنهض بالأمة نهضة حقيقية تعيد إليها مجدها السالف. وكانت الراية التى قررها رجال الثورة تجمع الألوان الأربعة التى كان كل واحد منها شعارا لعهد من عهود دول العرب القديمة المجيدة . وقد اشترك فى الثورة رجال من مختلف البلاد العربية، فكان بينهم السورى والعراقى واللبنانى والفلسطينى، كما كان بينهم المسلم والمسيحى .

لماذا تزعمت الحجاز الثورة العربية ؟ لم يكن من الممكن أن تبدأ الثورة فى سوريا مثلا ، فقد كانت متصلة بسائر أقسام المملكة العثمانية بالسكك الحديدية، كما أنها كانت مقر جيش عثمانى ، كما أصبحت مركز احتشاد قوى كبيرة منذ بداية الحرب ، فكان من السهل على الحكومة العثمانية القضاء على الثورة . أما بلاد الحجاز فهى بعيدة عن مراكز احتشاد الجيوش وعن طرق المواصلات الأساسية . كما أن بالحجاز قبائل مسلحة تعودت حياة القتال ، وكان من السهل حملها على الثورة . كما أن « إمارة مكة المكرمة » كانت تتمتع بمركز تاريخى

هام يجعلها صالحة لإثارة الثورة وقيادتها ، كما كان أميرها الشريف الحسين بن على شخصية لها شهرتها ونفوذها فى العالم العربى .

تكونت جيوش الثورة، وزحفت نحو الشمال ودخلت دمشق ثم زحفت إلى حلب ، وقوبلت هذه الجيوش بحماس وترحيب عظيمين ، وارتفعت الأعلام العربية . وتكونت الحكومة العربية فى سوريا فى جو من الحماس القومى الشديد . واستمر الحماس مدة سنتين اختمرت خلالها فكرة (القومية العربية) وانتشرت بين العرب فى كل مكان . وتولدت فى النفوس « وطنية عربية » صريحة ، متحرره من قيود نزعة « العثمانية الإسلامية » التى كانت تأخذ بخناق فكرة القومية العربية ، وتحول دون تبلورها وتشكلها ، وتمنعها من الانطلاق .

لكن الحلفاء طعنوا العرب من الخلف ، فقد بدأت مفاوضات سياسية بين الدول المؤتلفة الثلاث ، انجلترا وفرنسا وروسيا ، على اقتسام ميراث الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب ، منذ أواسط سنة ١٩١٥ . وانتهت هذه المفاوضات باتفاقيتين سريتين : عقدت الأولى منهما بين الدول الثلاث فى شهر مارس سنة ١٩١٦ ، والثانية بين فرنسا وانجلترا ، إتماما للاتفاقية الأولى فى شهر مايو من نفس السنة وهى اتفاقية سايكس بيكو .

حددت روسيا حصتها بالاتفاقية الأولى بالمضايق والقسطنطينية والولايات الشرقية ، وتركت أمر التصرف فى شئون الولايات العربية إلى فرنسا وانجلترا ،

على أن تتأسس حكومة إسلامية مستقلة فى الجزيرة العربية، وأن توضع القدس والأماكن المقدسة المجاورة لها تحت إدارة دولية ، وفق الشروط التى تتقرر فيما بعد بين الدول الثلاث .

قامت الثورة العربية من أجل ضمان استقلال الولايات العربية بأجمعها ، وبأمل تكوين دولة عربية مستقلة تجمع تلك الولايات تحت راية واحدة . وساعد العرب الدول المتحالفة بكل الوسائل الممكنة . ثم انتهت الحرب بانتصار الجانب الذى ناصره العرب ، وذهب مندوبوهم إلى مؤتمر ڤرساى بباريس ليطالبوا بتنفيذ الوعود التى ارتبط بها الحلفاء على لسان مكماهون وغيره ، ولكن مع الأسف لم تتحقق الآمال ولم تنفّذ الوعود . بل كانت نتيجة هذه المساعدات الغدر بالملك الحسين فأعطوه الحجاز بينما استولى الانجليز على العراق حتى إذا ثار سنة ١٩٢٠ ولّوا عليه فيصل بن الحسين ، أما سوريا ولبنان فقد استولت عليهما فرنسا ، أما فلسطين فقد استولى عليها الإنجليز ونشب فيها صراع عنيف بين العرب واليهود نتيجة وعد بلفور ، ثم اقتطع شرق الأردن وأصبح إمارة ثم مملكة على رأسها الملك عبد الله ابن الحسين . أما اليمن فقد سلّمها الترك للإمام يحيى حميد الدين عند جلائهم عنها سنة ١٩١٨ . وكوّن الملك عبد العزيز آل سعود المملكة السعودية فى نجد ثم استولى على الحجاز ثم عسير . أما مصر فقد نالت استقلالها سنة ١٩٢٢ بعد إلغاء الحماية البريطانية التى كانت قد أعلنت خلال الحرب العالمية الأولى .

قضت معاهدات الصلح وقرارات الانتداب على أمل تكوين دولة عربية مستقلة تضم الولايات العربية التابعة للحكومة العثمانية . وقُسِّمت الولايات العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية إلى وحدات سياسية .

وهذا أدّى إلى ظهور (نزعات إقليمية) مرتبطة بكل دولة من هذه الدول ، وهذه النزعات أخذت تعرقل سير فكرة القومية العربية . فالنزعة الإقليمية تتمسك بالأمر الواقع ، بينما الفكرة القومية تسعى إلى تحقيق أمل منشود وهدف أسمى . والنزعة الإقليمية تسعى لتقوية الحدود السياسية والمحافظة عليها ، بينما الفكرة القومية تعتبر هذه الحدود أمرا مؤقتا وتشجع التيارات المختلفة من أجل اكتساح هذه الحدود .

قامت كل دولة بوضع قوانين خاصة بها ، ونظمت اقتصادياتها ، ووجهت ثقافتها ، حسب أهوائها ومصالحها . ولا شك أن هذا الأمر أدّى إلى التباعد بين الشعوب التابعة لهذه الدول ، على الرغم من وحدة الأمة التي تنتسب إليها . وظهر في كل دولة طائفة من الزعماء والحكام والساسة الذين أصبحوا مرتبطين بالأوضاع القائمة ، وصاروا يدعون إلى إبقاء كل شيء على ما هو عليه . وفي نفس الوقت كانت الدول المحتلة والمنتدبة لا ترتاح إلى تكتل الشعوب العربية ، بل ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد والخلافات بين هذه الشعوب ولذا بذلت كل جهودها لتحول دون انتشار فكرة القومية العربية . وكانت فرنسا في مقدمة هذه الدول الأجنبية ، فقد زعمت أن السوريين ليسوا

بعرب و إن كانت لغتهم عربية ، وأن اللبنانيين فينيقيون ، وأن المسيحيين اللبنانيين أبعد الناس عن العروبة لأنهم من أحفاد الصليبيين الذين كانوا أتوا إلى الشام من مختلف الدول الأوروبية وخاصة فرنسا .

ومن ناحية أخرى ،خرجت البلاد العربية عن الحكم العثمانى الإسلامى، وتمزقت الجامعة الإسلامية ، وأصبحت البلاد العربية عربيّة قبل أن تكون إسلامية . بل إن تركيا الحديثة التى قامت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى قد سيطرت عليها القومية التركية المحضة ، وتخلت عن النزعة الإسلامية . و بدأ مصطفى كمال أتاتورك فى تتريك الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية .

٣ — الجامعة العربية فى ميزان القومية العربية

شعر العرب خلال الحرب العالمية الثانية بحاجتهم إلى الاتحاد وضم الصفوف ، و برزت فكرة الجامعة العربية وجرت مشاورات بين رئيس وزراء مصر ، و بين كل واحد من رؤساء وزارات الدول العربية المستقلة على انفراد. ثم اجتمعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام فى مدينة الإسكندرية ، المكونة من وفود الدول العربية، ثمانى جلسات من ٢٥ سبتمبر إلى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ . وانتهت الاجتماعات بتوقيع (بروتوكول الاسكندرية) وصدر قرار بتأليف لجنة فرعية لإعداد مشروع لنظام مجلس الجامعة واختصاصاته ، ولبحث المسائل السياسية التى يمكن إبرام اتفاقات فى شأنها بين الدول العربية . واجتمعت اللجنة الفرعية السياسية — بموجب القرار السالف ذكره — فى القاهرة، وعقدت ست عشرة جلسة من ١٤ فبراير إلى ٣ مارس ١٩٤٥ ثم وضعت مشروع ميثاق لجامعة الدول العربية . وعرض المشروع على اللجنة التحضيرية التى عقدت جلستين فى ١٧ و ١٩ مارس ١٩٤٥ وقررت الشكل النهائى للميثاق . وأخيرا اجتمعت وفود الدول العربية على شكل مؤتمر عربى عام فى قصر الزعفران فى ٢٣ مارس ١٩٤٥ ووقعت على الميثاق و بذلك أصبحت (جامعة الدول العربية) حقيقة واقعة .

هذه هى الخطوات التى خطاها العرب من أجل إنشاء الجامعة العربية ،

ولنذكر كل خطوة بشيء من التفصيل . كانت المرحلة الأولى مرحلة المشاورات بين رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس ورؤساء وزراء الدول العربية المستقلة. بدأت المشاورات بين النحاس ورئيس وزراء العراق نورى السعيد ، فعقدت أربع جلسات ، تم التفاهم فيها على أن يكون مشروع التعاون لإيجاد الوحدة العربية ينحصر فى الأقطار العربية المستقلة . على أن يكون مجال التعاون الشئون السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية . وذهب نورى السعيد إلى أن اتحاد البلاد العربية بإيجاد حكومة مركزية لها جميعا لا يمكن تحقيقه فى ذلك الوقت بسبب الظروف الخارجية وظروف البلاد العربية نفسها وما بينها من تفاوت فى الأحوال والثقافة والاقتصاديات ، ووافق النحاس على ذلك ، فتقرر استبعاد فكرة « حكومة مركزية واحدة للجميع » .

أما التعاون فى النواحى التى سبق ذكرها ، فقال نورى السعيد : إن ذلك لا يكون إلّا بأحد وجهين :

أولا : تكوين اتحاد له سلطة تنفيذية . ويكون للاتحاد جمعية تمثل فيها الدول العربية الداخلة بنسبة عدد سكانها وميزانياتها حسب مايتقرر فى نظام الاتحاد السياسى . ويكون للاتحاد رئيس ينتخب أو يعين وفقا لأحكام هذا النظام ، ويكون له لجنة تنفيذية ، وتكون لقراراتها قوة تنفيذية على الدول الداخلة فى الاتحاد . وفى هذه الحالة تلتزم كل دولة تنفيذ القرارات ولو كانت مخالفة لرأى مندوبيها . وهذا النوع من الاتحاد يحتّم على الدول التى تنضم إليه أن تتنازل عن جزء من سيادتها .

ثانيا : تكوين اتحاد دون سلطة تنفيذية . وقراراته لا تكون ملزمة إلّا لمن لقبلها . وفى هذه الحالة لا يكون محل للتفاوت بين عدد ممثلى الدول فتتساوى الدول المشتركة فى الاتحاد فى عدد المندوبين الذين يمثلونها . ولاحظ مصطفى النحاس أن هذه الصورة الأخيرة من صور التعاون قريبة الشبه جدا بنظام جامعة الاتحاد الأمريكى المعقود بين الولايات المتحدة الأمريكية ودول الأمريكتين الوسطى والجنوبية ، مع أن هذا النظام الأخير استبعد التعاون السياسى استبعادا تاما ، واقتصر على النواحى التجارية والصناعية والزراعية والاجتماعية والثقافية .

كانت الحلقة الثانية من المشاورات بين مصطفى النحاس وبين رئيس وزراء شرق الأردن توفيق أبو الهدى . عقدت ثلاث جلسات ، تركز البحث خلالها حول سوريا الكبرى (أى سوريا الطبيعية) . فتحدثوا فى أن سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تكون وحدة طبيعية . فيجب أن تكوّن وحدة سياسية . إلّا أن هناك مشكلتين أساسيتين: وضع المسيحيين — وخاصة الموارنة — فى لبنان ، ووضع اليهود فى فلسطين ، وهاتان المشكلتان تحولان دون تكوين وحدة تامة بين جميع هذه الأقطار . ورأوا أن تتوحد سوريا وشرق الأردن وتندمج فى دولة واحدة ، ثم يتألف اتحاد بين هذه الدولة وبين دولتى لبنان وفلسطين . ويتعاون هذا الاتحاد ، مع سائر الدول العربية . واستبعد توفيق أبو الهدى أيضا فكرة الحكومة المركزية ، وفضل تكوين اتحاد ذى سلطة تنفيذية .

ثم بدأت المشاورات مع الوفد العربى السعودى ، فعقدت خمس جلسات . ورأى السعوديون أن من المستحيل جمع الأمم العربية كلها فى دولة واحدة ، إذ أن هـذا يتعارض مع الأوضاع القائمة ، وقد ينشأ عنه اصطدام ليس لأحد مصلحة فيه . كما رأوا أنه يجب أن يكون اشتراك الأقطار العربية فى الجامعة على قدم المساواة التامة بعضها مع البعض . وصرح الوفد العربى السعودى أن حكومته مستعدة للتعاون مع سائر البلاد العربية فى المسائل الاقتصادية والثقافية، إلّا أنها ترى تأجيل البحث فى موضوع التعاون السياسى فى الوقت الحاضر إلى أن تتغيّر الظروف القائمة .

وجاء دور سوريا فى المشاورات ، فدارت بين رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس ، ورئيس وزراء سوريا سعد الله الجابرى ووزير خارجيتها جميل مردم . عقدت خمس جلسات ، صرّح خلالها سعد الله الجابرى بأن سوريا مستعدة استعدادا تاما للتضحية فى سبيل تحقيق الوحدة العربية ، عن طريق إيجاد اتحاد له صفة تنفيذية. فهى لاتشترط فى هذا أى شرط ، وتقبل كل القيود ولا تحجم عن التنازل عن سيادتها فى هذا السبيل. ومما قاله الجابرى عن مصر: « إن سوريا تعترف وتسلم بزعامة مصر راضية مختارة . وهى لاتقول ذلك اعتباطا بل نتيجة تفكير عميق ودراسة للواقع ، فإن وراء مصر تاريخا من الجهاد القومى ساعد على تركيز كيانها. وقد نشأ فيها رجال يستطيعون أن يتولوا توجيه القضية العربية ، بما لديهم من مزايا ووسائل ، و بما تتمتع به مصر من

انسجام بين أهلها ، وذلك علاوة على الثروة والعـدد والحضارة ، وهـذه كلها عناصر قوة تتميز بها مصر »

ثم تحدث الجابرى فى شأن اتحاد البلاد العربية فقال : « لا يسع الذين يحملون عبء المسئولية فى ديار الشام إلّا أن يعربوا عن شعور بلادهم وأمانيها بالدعوة الصريحة إلى اتحاد البلاد العربية والقيام بكل ما يستطاع فى سبيله . ونحن لا نريد أن نقنع باليسير من مجهودنا ، ولا أن نـكتفى بآمال ضعيفة متضائلة مقتصرة على حدودنا الصغيرة ، بل نريد أن نشاطر فى إنشاء عالم كبير حافل بالآمال الجسام التى يحققها الاتحاد ويعززها التعاون . ذلك هو العالم العربى الذى يسمو مرة أخرى لإعلاء شأنه ،ويتطلع إلى إدراك المنزلة الشريفة التى يساعده على نيلها تاريخه وطبيعة بلاده وكثرة سكانه وسعة أرضه المتصلة بعضها ببعض ، ومكانه الذى خصه الله بين الشرق والغرب » .

ثم دارت المشاورات بين وفد مصر ووفد لبنان ، وتحدث الوفد اللبنانى فقال إن لبنان لا تألو جهداً للعمل فى سبيل التعاون والتـكاتف بين البلاد العربية لما فى ذلك من الخير العميم للجميع . كما أن لبنان لا يقل اقتناعا ورغبة عن بقية الأقطار العربيـة بفوائد التعاون المشترك ، وقد كانت أولى خطواته العمليـة ما أقامه من صلات بينـه وبين شقيقته سوريا ، ويأمل أن تقوم صلات مماثلة بينـه وبين سائر البلدان الشقيقة وما التحفظ الذى أبداه لبنـان فى الماضى إلّا نتيجـة للنفوذ الأجنبى الذى عمل لإبعاد ما بين لبنان وسوريا ، أما وقد

تضاءل هذا النفوذ وسيزول غدا فسوف تخف وطأة هذا التحفظ وتزول .

وأخيرا دارت المشاورات مع وفد اليمن ، وصرح الوفد اليمنى أن اليمن ترحب بفكرة التعاون الثقافى والاقتصادى بين البلاد العربية الشقيقة ، بحيث تحتفظ كل دولة منها بكامل سيادتها وحقوقها ، وألّا تكون مقيدة بشىء ارتبطت به دولة أخرى ، كمعاهدة توجب عليها شيئا لبعض الدول الأخرى أو مايشبه . ويكون هذا التعاون قائما على التساوى بين جميع الدول العربية فى الحقوق والمصالح المتبادلة وإذا حدث أى عدوان على أى بلد من البلاد العربية المرتبطة بهذا الاتفاق ، أو تهديد له ، فللدولة المعتدى عليها أو المهددة أن تطلب مساعدتها . وإن كان البلد العربى غير مرتبط بهذا الاتفاق فلكل دولة عربية أن تطلب مساعدته . ويكون على جميع الدول العربية فى الحالتين تلبية هذا الطلب وتقديم كل ممكن من المساعدات المادّية والمعنوية .

هذه هى خلاصة للمشاورات ، ويتّضح منها أن آراء الدول الست لم تتفق إلّا فى أمر التعاون فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وأما التعاون السياسى ـ الذى يشمل الدفاع والشئون الخارجية ـ فقد اختلفت الآراء فى أمره اختلافا كبيرا : سوريا والعراق وشرق الأردن وافقت على التعاون السياسى . ولكن لبنان رأى الانفراد بمسألتى الدفاع والشئون الخارجية . ورأت المملكة العربية السعودية تأجيل البحث فى موضوع التعاون السياسى حتى تتغير الظروف القائمة . أما المملكة المتوكلية اليمنية فقالت بعدم إمكان تحقيق التعاون السياسى الآن .

أما فكرة تأليف حكومة مركزية للبلاد العربية كلها ، فلم تتبنها دولة غير سوريا وقد استبعدت سائر البلاد العربية فكرة إقامة الحكومة المركزية ، وقالت بتكوين اتحاد بين الدول العربية . ولكنها اختلفت فى سلطة هذا الاتحاد . أظهر العراق وشرق الأردن ميلا إلى تكوين اتحاد له سلطة تنفيذية . وقالت سوريا بتكوين اتحاد ذى سلطة تنفيذية عند تعذر تكوين الحكومة المركزية . ولكن لبنان حرصت على أن تبقى سيادتها كاملة ، فلا تتقيد بقرارات مجلس الاتحاد . أما المملكة السعودية والمملكة اليمنية فلم تفكرا فى اتحاد يكون له سلطة تنفيذية . أما رئيس وزراء مصر فلم يصرّح برأى حكومته خلال هذه المشاورات إذ خلت المحاضر من ذلك . ومع هذا كان كل شىء يدل على أنه ما كان يميل إلى تكوين اتحاد ذى سلطة تنفيذية .

وخلال مشاورات الوحدة ، اهتم المتشاورون بقضية فلسطين ، كما تطرق البحث إلى أوضاع البلاد العربية غير المستقلة أيضاً .

ثم اجتمعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى فى الاسكندرية . اشترك فى حفلة الافتتاح وفود سوريا وشرق الأردن والعراق ولبنان ومصر . أما مندوب اليمن ، فلم يحضر إلّا فى الجلسة الثانية ، ومندوب المملكة العربية السعودية حضر فى الجلسة الثالثة ، وبعد ذلك حضر مندوب عن فلسطين . تحدث رئيس وفد مصر ، وجاء فى خطبته : « يطيب لى فى هذا المقام أن أشيد

مرة أخرى بما يربط بين الأمم العربية فى مختلف البقاع من صلات أخوية وروابط إقليمية لايحصر مداها ولا تنفصم عراها على مرّ الأيام ، روابط الأصل واللغة والطباع والتقاليد والآمال والآلام » .

وجاء فى خطبة رئيس وفد سوريا سعد الله الجابرى : « . . فالشام التى تحمل إلى هذا الجمع الحافل أمانيها وآمالها لاتزال كما كانت منذ القدم عاملة على خدمة القضية العربية ، قد هيأت نفسها لتقوم بما يتطلبه منها المجموع العربى بإيثار واختيار ، وهى تبذل كل ماتدعى إلى بذله لتحقيق الغاية العظمى التى تسعى وراءها الأقطار العربية لتؤلف وحدة قوية من أجزاء متماسكة فى السلم والحرب، لايستطيع أى جزء منها أن يعيش بمعزل عن صاحبه » .

ومما قاله رئيس وزراء العراق حمدى الباجه جى : « نحن ننتمى إلى عنصر واحد ، ولنا تاريخ وماض واحد ، وتقاليد مشتركة ، وتجمعنا لغة واحدة ، ولذلك فإن الواجب يقضى علينا أن نقف فى هذا العالم وقفة لاتقل عن وقفات الأمم الأخرى التى لم تجد سبيلا لضمان سلامتها وحفظ كيانها ، وجعل نفسها عنصرا فعّالا يخدم العالم والسلام » .

وجاء فى خطاب عضو وفد لبنان سليم تقلا : « ولم يكن لبنان يوما ـ وهو ابن العروبة البار ـ إلّا الحافظ الأمين للرسالة التى اضطلع بها العرب فصانها كنزا ثمينا فى بطون وديانه ودواخل مناسكه وصوامعه وحفظتها شوامخه الرواسى تراثا مجيدا إلى أن أتاح الزمان لأبنائه فجابوا البحار والبلدان وحملوا إليها حيث

حلّوا لغـة العرب وأخلاقهم ، وكانوا الصلة المثلى بين المدنيات رافعى ألوية العلم والعمل والقومية » .

أهم المناقشـات وأطولها جرت حول قضية « إلزام قرارات مجلس جامعة الدول العربية » . فقد حاول المتفاوضون أن يجدوا حلاً وسطا بين الإلزام التام، وبين عدم الإلزام المطلق . وأرادوا أن تـكون القرارات ملزمة للجميع فى بعض الأحوال . واتفقوا فى آخر الأمر على الصيغة التالية : « تـكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها فيما عدا الأحوال التى يقع فيها خلاف بين دولتين من أعضاء الجامعة ، ويلجأ فيها الطرفان إلى المجلس لفض هذا الخلاف . ففى هذه الأحوال تـكون قرارات مجلس الجامعة نافذة ملزمة » .

أصدرت اللجنة التحضيرية « بروتوكول الاسكندرية » فى ٧ أكتوبر سنـة ١٩٤٤ . ولـكن اللجنة الفرعية السياسية أدخلت تعديلات عديدة على بروتوكول الاسكندرية ، وانتهت إلى وضع مشروع « ميثاق جامعة الدول العربية » ، ثم جاء المؤتمر العربى العام ، غيّر صيغ بعض المواد وترتيبها ، وانتهى إلى ميثاق جامعة الدول العربية النافذ الآن . وقد وقّع على الميثاق مندوبو الدول العربية السبع ، بما فيهم مندوبا السعودية العربية واليمن ، فى قصر الزعفران فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ فى احتفال رسمى .

ولنضع ميثاق جامعة الدول العربية فى ميزان القومية العربية . فنلاحظ أن وفود معظم الدول العربية كانت بعيدة عن التفـكير فى « الوحدة »

أو الاتحاد » وكانت تميل إلى الاكتفاء « بالتعاون » فقط . كما نلاحظ أن الأمثلة التى ذكرت خلال المشاورات والمناقشات كلها من نوع المعاهدات بين أمم مختلفة فى اللغة وفى التاريخ ، مثل الأمم المتحدة ، أو الأمم الأمريكية ، أو البرازيل وأوروجواى ، أو أمريكا وفرنسا كما تراجعت بعض الدول عن خطواتها الأولى ، فكان الميثاق الذى تم الاتفاق عليه بمثابة تراجع بالنسبة إلى البروتوكول الذى وقع عليه فى الاسكندرية . فقد كانت وفود معظم الدول تسعى إلى تثبيت الأوضاع القائمة وتدعيمها أكثر مما تفكر فى الإعداد لحالات أفضل فى المستقبل .

فى أمر الإلزام وعدم الإلزام ، كان هناك سبع درجات مختلفة من الإلزام :

١ ـ أن تكون القرارات ملزمة لمن يقبلها فقط ، وبطبيعة الحال تكون غير ملزمة لمن يخالفها .

٢ ـ تكون ملزمة لمن يقبلها ، إلّا إذا كانت تتعلق بخلاف يقوم بين دولتين عربيتين ، على أن يتفق الطرفان المختلفان على تحكيم الجامعة فيه . فى هذه الحالة تكون ملزمة للجميع .

٣ ـ تكون القرارات ملزمة لمن يقبلها إلّا إذا كانت تتعلق بخلاف يقوم بين دولتين عربيتين . فقرار المجلس فى هذا الشأن يكون ملزما للطرفين المتحالفين ، ولو لم يطلبا التحكيم .

٤ ـ تكون ملزمة لمن يقبلها فقط بوجه عام ، وملزمة للجميع فى

الأحوال التى يمكن أن تضر بالدول العربية الكبرى ، ما عدا الأمور المتعلقة بالحدود و بالسيادة .

٥ ـ ملزمة لمن يقبلها بوجه عام ، وملزمة للجميع فى الأمور السياسية التى تهم المجموع العربى .

٦ ـ ملزمة للجميع ، فى جميع الأحوال .

وقد استقر رأى الوفود العربية على الوقوف فى الخطوة الأولى .

جاء فى المادة التاسعة من الميثاق : « لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها فى تعاون أوثق وروابط أقوى مما نص عليه هذا الميثاق أن تعقد بينها من الاتفاقات ماتشاء لتحقيق هذه الأغراض » . وللأسف لم تعمل كثير من الدول العربية على أن تكون لهذه المادة صبغة عملية ، فما زالت الاتفاقات قليلة محدودة .

وللإنصاف نقول إن كل شىء يدل على أن معظم الدول العربية كانت ترغب فى جعل جامعتها أوثق ترابطا مما تقرر فى الميثاق ، إلا أنها اضطرت إلى قبول النص المذكور مراعاة لنزعة التحفظ والحذر التى بدت من بعض الدول العربية وأملا فى أن يعدل الميثاق فيما بعد ، عندما تطمئن الدول المذكورة على سير الأمور ، وتترك التحفظ والحذر. إن أمل واضعى الميثاق فى هذا الأمر يبدو جليا واضحا فى فقرة جاءت فى المادة التاسعة عشر من الميثاق : « يجوز بموافقة ثلثى دول الجامعة أن يعدل هذا الميثاق ، وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها

أمتن وأوثق . . . » . إلا أن الدول العربية لم تتقدم إلى الآن لتعديل الميثاق من أجل توثيق الصلات بينها .

إن الدافع الأساسى لعقد ميثاق جامعة الدول العربية موضح فى ديباجة الميثاق : « تثبيتا للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين الدول العربية ، وحرصا على دعم هذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها ، وتوجيها لجهودها إلى مافيه الخير للبلاد العربية قاطبة وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة للرأى العربى العام فى جميع الأقطار العربية » .

يتألف مجلس الدول العربية من ممثلى الدول المشتركة فى الجامعة، ويكون لكل منها صوت واحد ، مهما يكن عدد ممثليها . وتكون مهمته القيام على تحقيق أغراض الجامعة ومراعاة تنفيذ ماتبرمه الدول المشتركة فيها من اتفاقات . ويدخل فى مهمة المجلس كذلك تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التى قد تنشأ فى المستقبل لكفالة الأمن والسلام ولتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . ينعقد مجلس الجامعة انعقادا عاديا مرتين فى العام فى كل من شهرى مارس وأكتوبر وينعقد بصفة غير عادية كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، بناء على طلب دولتين من دول الجامعة .

٣ — العالم العربى والعالم الإسلامى فى العصر الحاضر

العالم العربى :

من هم العرب ؟ على أى أساس تطلق عليهم صفة العرب ؟ أعلى أساس انحدارهم من جنس واحد نقى الدم؟ أم على أساس اللغة ؟ أم على أساس الدين؟ أم على أساس الحضارة الواحدة والتكوين الفعلى المتشابه ، والنظم الاجتماعية المشتركة ؟

اتسع مفهوم كلمة (عربى) بالتدريج خلال القرون التى أعقبت ظهور الإسلام . أما فى الأزمنة السابقة لظهور الإسلام ، فقد كان يقطن الجزيرة العربية فريقان : الأول وكثرته من البدو يتنقل بين الفرات وقلب الجزيرة حتى الحدود الجنوبية لنجد والحجاز . والثانى ومعظمه من الحضر يقيم فى الجنوب فى اليمن وحضرموت . وكانت كلمة (عربى) بمعناها الإثنوغرافى الضيق تطلق على القوم الأول فقط . ولكن هذا التعريف بطل استعماله فى الوقت الحاضر ، وأصبح لكلمة (عربى) وعبارة (العالم العربى) مفهوم أوسع.

ثم ظهر الإسلام ، وسار انتشار اللغة العربية جنبا إلى جنب مع انتشار الإسلام . وبعد مائة سنة من وفاة محمد قامت امبراطورية عربية تمتد من شبه جزيرة أيبريا فى الغرب إلى البحر المتوسط ثم إلى شواطئ السند وبحر الخزر فى الشرق . وفى القرون التى أعقبت ذلك كان الطرفان الشرقى والعربى

لهـذه الامبراطورية يتراوحان بين مد وجزر . ولـكن الدعوة إلى الإسلام والدعوة إلى العروبة لم يكونا متصلين ، فقد تقدم الإسلام مسافات بعيدة إلى الأمام واستطاع أن يتخطى الحواجز التى وقفت دونها العروبة .

يتألف العـالم العربى من البلاد التى بقى معظم سكانها متأثراً بالعوامل الفـكرية والاجتماعية العربية فلا تدخل فى نطاقه أسبانيا وجزر البحر المتوسط حيث ظهرت قوى جديدة بعـد زوال السيطرة العربية فمحت أثرها . كما أن إيران وتركيا وأفغانستان وسائر المناطق الواقعة فيما وراء السند وجيحون تخرج من نطاقه لأنها لم تتخذ العربية لغة قومية لها فى وقت من الأوقات . وعلى هذا فإن العالم العربى يتألف من سلسلة غـير متقطعة من البلاد تمتد من سواحل المحيط الأطلسى فى الغرب ، وتمر بالشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط حتى تصل إلى حدود إيران فى الشرق . أى ساحل إفريقيـة الشمالى من مراكش إلى مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية .

نرى أن كل من ينتسب إلى البـلاد العربية ويتكلم باللغـة العربية ، هو عربى . مهما كان اسم الدولة التى يحمل جنسيتها ، ومهما كانت الديانة التى يدين بها والمذهب الذى ينتمى إليـه ، ومهما كان أصله ونسبه فهو عربى . والعروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة العربية ، ولا مختصة بالمسلمين وحدهم . بل إنها تشمل كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية ، سواء أكان مصريا ، أو سوريا ، أو كويتيا ، أو تونسيا . وسواء أكان مسلمـا

أو مسيحيا . فهو من أبناء العروبة ، مادام ينتسب إلى بلاد عربية ، ويتكلم باللغة العربية .

إن الدول العربية القائمة الآن ، لم تتكون ولم تتعدد بمشيئة أهلها ، ولا بمقتضيات طبيعتها . إنما تكونت وتعدّدت من جرّاء الاتفاقات والمعاهدات المعقودة بين الدول التى تقاسمت البلاد العربية وسيطرت عليها . كما أن الحدود الفاصلة بين الدول العربية أيضاً لم تتقرر وفق مصالح البلاد وسكانها ، إنما تقررت بعد مساومات بين الدول المستعمرة ضمانا لمصالحها هى والفروق والاختلافات التى تشاهد الآن بين الدول العربية ، من حيث النظم الإدارية والتشريعية والاقتصادية ، والاتجاهات السياسية ، إنما هى من بقايا عهود الاحتلال .

الأقطار العربية فى آسيا هى : الشام (سوريا ، فلسطين ، لبنان ، الأردن) ، والعراق ، والكويت ، والبحرين ، وقطر ، وعمان ، والمملكة العربية السعودية ، محميات عدن ، اليمن ، عدن . وفى إفريقية : مصر ، والسودان ، وليبيا ، وتونس والجزائر ، ومراكش . وقد انضمت سوريا ومصر وتكونت دولة جديدة هى الجمهورية العربية المتحدة . إن هذه الأقطار لغتها العربية ، ولكن أهلها ليسوا كلهم من سلالة واحدة عربية . وإن كان العرب لايكونون دولة واحدة إلّا أنهم أمة واحدة . فالأمة غير الدولة ، والمجموع القومى غير المجموع السلالى .

يقول الأستاذ (هوغارت) : إن العرب استمالوا إلى لغتهم وآدابهم ، حتى طبعوا بسحنتهم الطبيعية الأجانب ، أكثر من أى قوم آخرين قبلهم وبعدهم ، من دون استثناء أحد ، حتى ولا اليونان والأنجلوسكسون ، أى أن العرب كانوا أنجح المستعمرين على الإطلاق . وكانت لغة العرب وما تزال حتى اليوم ، لغة التخاطب والتدوين لنحو سبعين مليونا من البشر ، كما أنها كانت طوال العصور الوسطى ، لغة العلم والثقافة والفكر ، فى العالم المتمدن .

وفى الفترة الأخيرة خطت الأمة العربية خطوات مباركة فى سبيل إنشاء دولة عربية متحدة . فقد تمّ إنشاء (الجمهورية العربية المتحدة) نتيجة اتحاد مصر وسوريا فى دولة واحدة ، كما قام اتحاد فيدرالى يشمل الجمهورية العربية المتحدة واليمن .

العالم الإسلامى :

كان من نتائج انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية ، ظهور عالمين أحدهما أوسع من صاحبه بكثير : العالم الإسلامى ، والعالم العربى . وقد حوى الأول الثانى . ومع تقدم الزمن ضمّ عالم الإسلام الهند والصين وأقصى الغرب من مجاهل إفريقية ، بينما بقى العالم العربى منحصرا فى البلاد التى انتشرت فيها اللغة العربية والعناصر العربية والعادات العربية .

يشمل العالم الإسلامى : الأقطار العربية السالفة الذكر ، وتركيا ،

و إيران ، وأفغـانستان ، وتركستان ، والباكستـان ، وجزءا من الهند ، والقوقاز ، وجزر الهند الشرقية ، وأندونسيا ، وأجزاء فى شمال ووسط إفريقية. بجانب بعض الـكتل المتفرقة فى أوروبا وآسيا : فى ألبانيا ، يوغسلافيا ، بولندة، والصين ، واليابان . ولا حاجة لبيان أن الأقطار العربية تشغل القسم المركزى من العالم الإسلامى المترامى الأطراف .

ينادى البعض أن هدف (الوحدة الإسلامية) أسمى من هدف (الوحدة العربية) وأن القوى التى تنتج عن اتحاد المسلمين تـكون أعظم من التى تنتج عن اتحاد العرب ، وأن الشعور الدينى فى الشرق أقوى بكثير من الشعور القومى ، ويرون أن اختلاف اللغات لا يحول دون اتحاد المسلمين ، ويدلّون على آرائهم على أن مبادئ الشيوعية والاشتراكية والماسونية وغيرها تجمع بين أناس اختلفت لغاتهم وأجناسهم و بلادهم وأقاليمهم، ولم يمنعهم هذا الاختلاف كله من أن يتفاهموا و يتقاربوا ويجتمعوا على مبدأ واحـدْ . وينادون بأن المسلمين إخوة فى كل مكان ، فالمسلم فى الإقليم المصرى أو السورى والمسلم الهندى أو الصينى كأخيه المسلم الذى يعيش معه جنبا إلى جنب . فماذا يحول دون تحقيق الوحدة الإسلامية ؟

أما الحركات السياسية الإسلامية فتعتبر المسلمين أمة واحدة مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت لغاتهم ، وتباعدت أوطانهم . وتسعى إلى توحيدهم فى دولة إسلامية كبرى ، أو جمعهم فى (جامعة إسلامية) . فالدين الإسلامى فى نظر

هذه الحركات هو الوطن الذى يجمعهم ، والراية التى توحّدهم . وهى تريد أن تقيم الدولة والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، على أساس من تعاليم الإسلام . هذه الغاية البعيدة للحركات السياسية الإسلامية الناشطة اليوم هى أساس الخلاف بينها و بين الحركات القومية والوطنية عموما .

هذه الحركات الإسلامية تبعث الخوف فى قلوب أبناء الطوائف غير المسلمين من العرب ، مما يجعلهم يؤيدون الحركات القومية . وهذه الطوائف ترى أن الإسلام و إن أدّى دوره التاريخى العظيم وقاد الأمة العربية إلى المجد ، فإن هناك عوامل أخرى تعتبر أساسا للحياة العربية فى الوقت الحاضر والمستقبل .

الوحدة العربية والوحدة الإسلامية :

يرى البعض أن الوحدة الإسلامية أقوى من كل وحدة سواها ، وأن تحقيقها أسهل من تحقيق أية وحدة أخرى ، ويرون أن فكرة الوحدة العربية بقصد الاستعمار من ورائها الحيلولة دون اتساع فكرة الوحدة الإسلامية ، وذلك لفصل بعض أقطار العالم الإسلامى حتى تظل واقعة تحت الاستعمار دائما .

وهناك أسئلة يجب أن نبحث لها عن إجابات حتى نلم بالموضوع : هل الوحدة الإسلامية من الآمال التى يمكن تنفيذها ، أم هى أحلام وأمانى ؟ وهل تحقيقها أسهل أم أصعب من تحقيق الوحدة العربية ؟ وهل تتعارض

الوحدة الإسلامية مع الوحدة العربية ؟ وهل من سبيل إلى تحقيق الوحدة الإسلامية ، دون تحقيق الوحدة العربية ؟

مامعنى الوحدة ؟ الوحدة العربية تتطلب إيجاد وحدة سياسية من الأقطار العربية المختلفة التى تتكلم باللغة العربية . أما الوحدة الإسلامية فتتطلب إيجاد وحدة سياسية من البلاد الإسلامية المختلفة التى يدين أهلها بالإسلام ، بالرغم من اختلاف لغاتهم وأجناسهم .

أى الوحدتين أسهل ؟ نظرة واحدة إلى خريطة كل من العالم العربى ، والعالم الإسلامى ، تبيّن أن الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الإسلامية. بل أن العالم العربى جزء من العالم الإسلامى ، والوحدة العربية خطوة أوّلية فى سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية . فلا يمكن أن نتصوّر اتحادا يضم القاهرة ودمشق وطهران وأنقرة وكابل وحيدرأباد ، دون أن يحصل اتحاد بين القاهرة وبغداد ومكة وتونس . ولو كان العالم العربى أكثر اتساعا من العالم الإسلامى لكانت الوحدة الإسلامية أسهل تحققا .

هل هناك تعارض بين الجامعة العربية والجامعة الإسلامية ؟

تتفق الحركات القومية العربية والحركات الإسلامية فى أمور وتختلف فى أمور . ويأتى هذا الاتفاق بين الحركات القومية والإسلامية من طبيعة الدين الإسلامى نفسه ، ومن طبيعة القومية العربية ذاتها. وسارت القومية الإسلامية

بجانب القومية العربية جنبا إلى جنب طوال صدر الإسلام والعصور الوسطى ، بل تتشابكان فى التاريخ الحديث . فهل كانت النهضة العربية الحديثة إلّا تيارا من النهضة الإسلامية فى القرن ١٩ ؟ ألم يكن الحسين بن على بطل العرب القومى فى العصر الحديث ، وقائد الثورة العربية ضدّ الأتراك ، والعامل على تأسيس دولة عربية موحّده ، شريف مكة ، وسليل الرسول ؟ألم يبايعه المسلمون خليفة للمسلمين ؟

الاختلاف الأساسى بين الحركات السياسية الإسلامية ،والحركات القومية العربية : الحركات القومية العربية أساسها أن العرب أمة ، وتدعو إلى وحدة عربية مستقلة عن الدين فيما يختص بنظم الدولة والمجتمع والاقتصار استقلالا تاما . أما الحركات السياسية الإسلامية فتعتبر المسلمين أمة واحدة مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت لغاتهم ، وتباعدت أوطانهم ، وتسعى إلى توحيدهم فى دولة اسلامية كبرى ، أوجمعهم فى (جامعة اسلامية) . فالاسلام هو الوطن الذى يجمعهم ، والراية التى يلتفون حولها . والإسلام هوأساس النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية .

وتتفق الحركات الإسلامية والحركات العربية فى الغايات البعيدة ، كما تلتقى معها فى الغايات القريبة : أولهاتحرير البلاد العربية من الاستعمار والنفوذ الأجنبى . فالحركات الإسلامية ، كالحركات القومية عامة ، تضع قضية تحرير البلاد العربية فى مقدمة أعمالهاالسياسية . وثانى هذه الغايات جمع شمل الأقطار

العربية وتوحيد كلمتها وتنظيم مواردها الاقتصادية ، والسعى لإقامة وحدة عربية، أو (جامعة عربية) متينة الأواصر .

نشر الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة ، مقالا فى جريدة الأهرام بعنوان (الجامعة الإسلامية والجامعة العربية) جاء فيه : فى الربع الأخير من القرن الماضى ، والعشر الأوائل من القرن الحالى ، ظهرت فى سماء الفكر السياسى المصرى أفكار ثلاثة هى سلسلة متصلة الحلقات ، وهى فكرة الجامعة الإسلامية ، وفكرة الجامعة العربية ، وفكرة الجامعة القومية (أو المصرية) . واقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بظهور السيد جمال الدين الأفغانى ، الذى يقول المؤرخون إنه جاء يبشر بدولة إسلامية عريضة فى ظل خلافة عثمانية قوية . وهى فكرة كان يمكن تحقيقها لو أوتيت تركيا يومئذ من القوة المادية والمعنوية مايكفل لها ذلك .

ومنذ خابت آمال أوروبا فى الشرق الأقصى ـ أى الصين واليابان ـ اتجهت آمالها الاستعمارية إلى الشرقين الأوسط والأدنى ، فصوبت إليهما سهام الاستعمار . ثم نهض المسلمون فى بلادهم . وخشى الاستعمار الأوروبى نتائج هذه النهضة ، وعندئذ أصبح للجامعة الإسلامية معنيان : أحدهما فى أذهان المسلمين فى الشرق ، والثانى فى أذهان الأوروبيين فى الغرب .

فأما المعنى الأول لفكرة الجامعة الإسلامية فى أذهان المسلمين فهو النهوض ببلاد الإسلام نهوضا تستيقظ به من سباتها وتتخلص من النفوذ الأوروبى الذى

كان عاملا حقيقيا فى تخلفها ، لافى تقدمها كما زعم القوم . وأما المعنى الثانى لفكرة الجامعة الإسلامية فى نظر الأوروبيين فهو الخوف من أخطار الجامعة الإسلاميه .

وكان المسلمون إذ ذاك يرون أن تركيا هى أقوى الأمم الإسلامية ، وأن سلطانها جدير بلقب خليفة ، ومن ثم اقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بفكرة الخلافة العثمانية ، ووجد المسلمون فى هذه الفكرة السبيل الوحيد لإنقاذهم من براثن الاستعمار الأوروبى ، واقتنع بهذه الفكرة الزعيم مصطفى كامل ، ورأى فى بقاء الدوله العلية يومئذ أمرا لازما للتوازن الدولى ، لولا ماأصابها من ضعف جعل من ممتلكاتها طعمة للاستعمار الأوروبى .

أما الأوربيون فقد ابتدعوا لمحاربة قيام الجامعة الإسلامية فكرة الجامعة العربية التى دعا إليها كثيرمن كتاب الغرب وساسته تخوفامن الجامعةالإسلامية التى رأوا فيها الخطر الأكبر . وأغرت هذه الفكرة كثيرا من المسلمين فراحوا يؤيدونها ويدعون لها دون أن يذكروا أنهم أخذوها عن الأوروبيين ، وكان من هؤلاء السيد على يوسف صاحب (المؤيد) الذى كان متأثرا فى ذلك بأفكار الخديو عباس حلمى .

وبينما العالم الشرق متأرجح بين هاتين الفكرتين إذ بالجريدة التى يحررها الاستاذ الكبير أحمد لطفى السيد تدعو إلى فكرة جديدة هى فكرة «الجامعة المصرية» . وتأثرت الأذهان بهذه الفكرة إلى مابعد عام ١٩٣٢ ثم ظهرت

من جديد فكرة الجامعة العربية . ومع أنها نبعت مرة أخرى من الأطماع الانجليزية إلاّ أن المصريين والشرقيين تحمسوا لها وحرصوا على الانتفاع بها ضد الاستعمار والتخلص من دسائس الإنجليز .

وفى ذلك يقول الأستاذ فتحى رضوان . «. . . وتنبه مصطفى كامل إلى هذه المحاولة ، وأثبت أن نية بريطانيا لاتهدف إلى انشاء جامعة عربية للعرب ولمصلحة العرب ، بل جامعة عربية تعيش فى ظل انجلترا وتحت سلطان انجلترا . وكان هذا التنبؤ من مصطفى كامل منذ أكثر من خمسين عاما فتحقق ماتنبأ به وثبت أنه يجب على كافة الدول العربية أن تكافح النفوذ الأجنبي لتخلص الجامعة العربية للعرب ، وتكون أداتهم فى تحقيق العزة والكرامة » .

هل يصلح الإسلام ليكون أساسا لوحدة أو جامعة إسلامية ؟

إن الدين يصلح ليكون عاملا من عوامل التوحيد إذا ما بقى دينا ولم يمسخ إلى سياسة أوطائفية . فالدين الذى تظهر ثماره فى علاقة الإنسان بالخالق وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان فيقيم وزنا لقيمة الفرد وكرامته يعزز روابط الأخوة ويقرب بين الأفراد حتى ولواختلفوا فى شعائر الدين وطقوسه . أما إذا مسخ إلى سياسة أوطائفية استحال إلى مصلحة من المصالح الدينوية ، وأصبح أداة للتفريق . إن غالبية العرب العظمى تدين بالإسلام ، وعلى الرغم من أن الدولة الإسلامية والإسلام لم يكونا مرادفين من يوم الفتنة الكبرى فى عهد عثمان ابن عفان ، وعلى الرغم من أن العروبة والإسلام لم يكونا يوما مسمين لشىء

واحد ، بل كان الإسلام أوسع وأشمل ، فلايزال الإسلام ، بعد اللغة العربية ، أعظم عامل مشترك بين العرب فى جميع أقطارهم . ولقد أظهر الاسلام فى الماضى رحابة صدر وسعة نفس ، وعاش المسلمون وغير المسلمين فى ظل خلافة واحدة . مما يطمئننا على أن الإسلام ، وهو دين الغالبية العربية ، لن يكون فى المستقبل أداة للتفريق بل للتأليف .

كتب المرحوم الدكتور أحمد أمين مقالا بعنوان (الجامعة الإسلامية) جاء فيه : إن الحاجة إلى الجامعة الإسلامية لاتزال كما كانت بل أشد مما كانت ، لأن المسلمين لايزالون متفرقين رغم توالى الضربات عليهم ورغم اتحاد السياسه الأوروبية ضدهم ، ومع محاولة أوروبا خنقهم . وقد قال أحد الأوروبيين إن هذه النهضة الإسلامية حاولت الاتفاق مع البوذيين ومع الصينيين ، ولم يبق أمامها إلا عدو هو أوروبا ، أى أن الشرق ناهض وعلى الغرب أن يستعد لمقابلته فى ساحة العراك ، وأمام أوروبا اليوم مسألة هامة هى هذه الجامعة الإسلامية .

ويرى المرحوم الدكتور أحمد أمين أن خير وسيله لتحقيق الجامعة الإسلامية هو بناء الحياة على العلم ، والتوفيق بين الإسلام والمدنية الحديثة . ويرى أنه إذا كانت محاولات التوفيق قد فشلت حتى الآن ، فإن هذا الفشل لايعود إلى تعاليم الإسلام نفسه بل إلى أسباب أخرى أهمها أن المدنية الحديثة تقدمت إليهم أول ماتقدمت بالسيف والنار لا بالاقتناع والإحساس بالمنفعة .

ثم إن المدنية هـذه تقدمت وهى تحمل فى إحـدى يديها المخترعات الحـديثة ونتاجها فى العلوم والفنون ، وفى الأخرى وسائل الاستغلال والاستعمار ، فلذلك قبلها المسلمون كارهين ولو تقدمت إليهم على غير هذا الوجه لقبلوها قبولا حسنا كما قبلوا المدنيّة اليونانية والفارسية والتركية من قبل . والثالث أنها جاءتهم على يد الصليبيين المتعصبين الذين اكتووا بنارهم من أيام الحرب الصليبيّة إلى اليوم. والرابع أن المسلمين لضعفهم أصابهم مايسمى فى علم النفس بمركب النقص فقبلوها ضعفاء متهافتين ينظرون إليها على أنهم ضعفاء مغلوبون على أمرهم لاحيلة لهم فى رفضهم ، ومع ذلك فقبولهم للأشياء المادية من المخترعات الحديثة كان أسهل عليهم من قبولهم للمعانى ، وإن أخذوا من كل بحظ .

تأثر الشيخ محمد عبده بتعاليم السيد جمال الدين الأفغانى و بذل محاولات جـدية فى سبيل إرتقـاء شأن المسلمين ، وبحث الصلات بين العقل والدين الإسلامى ، وبحث الصـلة بين العلم والدين . ورأى أن الدين يجب أن يعتبر « من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه » ورأى أن الدين يكمل العقل و يقومه ، وأن العقل حـكم فى شئون الدين . وكتب الشيخ محمد عبده فى إحدى مقالاته بجريدة الأهرام عن وسائل رقى المسلمين فقال : « إننا لا نجد سببا لرقيهم فى الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم . فأول واجب علينا هو السعى بكل جهد و اجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا » .

وهناك كثير من المفكرين يرون أن الإسلام ، أو أى دين آخر ، لا يصلح لأن يكون أساسا لوحدة سياسية أو جامعة . فيرى الأستاذ الكبير ساطع الحصرى ، وهو من كبار أنصار القومية العربية ، أننا نعيش فى عصر انفصلت فيه العلاقات السياسية عن العلاقات الدينية ، وأن العصور الحديثة شاهدت كثيرا من الحروب التى نشبت بين دول تنتسب إلى دين واحد . ويرى أن المسلمين قد انقسموا على أنفسهم إلى مذاهب عديدة ، فكيف يؤمل أن يتفقوا فى المصالح الدنيوية المتشابكة وفى الأمور السياسيّة المعقدة ؟ ثم يقول إن الأمم الإسلامية كثيرة ومتنوعة وفى الواقع أن جميع الشعوب والأمم الإسلامية ترتل السور القرآنية ، وتتوجه نحو الكعبة ، ولكنها لا تتكلم بلغة مختلفة عن مشاكل غيرها ، نظرا لاختلاف أوضاعها الجغرافية من ناحية ، واختلاف مجارى تاريخها من ناحية أخرى . ويلفت الأستاذ الحصرى الأنظار إلى أن مصر لم تتحد مع نيجيريا أو أندونسيا مثلا ، فى أى عهد من العهود الإسلامية . فكيف نعلّق الآمال على مثل هذا الاتحاد ؟

هل تصلح اللغة العربية أساسا لوحدة أو جامعة عربية ؟

يكاد يجمع المفكرون والكتّاب على أن اللغة أكثر صلاحيّة من الدين لتكون أساسا لوحدة أو جامعة . فاللغة هى أداة التفكير ، ووسيلة التعبير عن الآراء والشعور ، ووحدة اللغة تنشأ من الوحدة فى التاريخ ، وتؤدى إلى الوحدة فى الثقافة . لقد كانت العروبة ولم يكن إسلام أو مسيحية ؛ فقد أنشأ العرب

ملكا وشادوا حضارة وسنّوا قوانين منذ آلاف السنين ، أى قبل أن يكون فى هذه الدنيا إسلام أو مسيحية . ويقول الأستاذ على ناصر الدين فى كتابه (قضية العرب) :

أماّ أن تكون وحدة الدين شرطا فى وحدة القومية ، فهذا مالا نفهمه ولا نقرّه على الإطلاق . لقد وجد البشر قبل أن توجد هذه الأديان . وقبل الأديان وجدت العائلة ، فهل أن إخوة فى عائلة من العائلات ، يمتنع عليهم ، طبيعة أو عقلا أوعلما ، أن يلبى فريق منهم دعوة دين ، ويلبى الفريق الآخر دعوة دين غيره ؟ وهل أنه من المفروض أن يدينوا جميعا بدين واحدلكى نسلّم بأنهم عائلة واحدة ؟ ويدلل الأستاذ ناصر الدين على صحة رأيه بما حدث فى المؤتمر الإسلامى العالمى الذى عقد فى القدس سنة ١٩٣٢ وقد كان عضوا من أعضائه .

تطورّ المؤتمر الإسلامى ، فظهرت فيه العصبية القبلية ، وقد انتهز ممثلو العرب فرصة عقد المؤتمر فرأوا أن يعقدوا مؤتمرا عربيا بعد أن يفرغ المؤتمر الإسلامى من أعماله . وعقد المؤتمر العربى فعلا ، واتخذ قرارات من أهمها : « أن البلاد العربية التى سلخت عن السلطنة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وحدة لاتتجزأ » .

كتب المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى مقالا بعنوان (الجنسية العربية فى القرآن) جاء فيه : أن القرآن معجزة من المعجزات ، وأن هذه

المعجزة ليست إلى اللغة فى مردّها من الفائدة ، فإنما هى ترمى إلى وحدة سياسية تكون كالنبض لقلب هذا العالم ، فإن القرآن تنزل من العرب منزلة الفطرة اللغوية التى يساهم فيها كل عربى بمقدار ماتهيأ له من أسبابها الطبيعية ، إذ كان بما احتواه من الأساليب وماتناوله من أصول الكمال اللغوى ، ومادار عليه من وجوه الوضع البيانى ، قد هتك الحوائل ومنع الفروق . إن القرآن هو الذى صفّى تلك الطباع ، وصقل جوانب الروح العربية ، حتى صارت المعانى الإلٰهية تتراءى فيها ، وكأنها من معانيه . إن ألفاظ القرآن كانت تلبس العرب حتى تتركهم كالمعانى السائرة التى لاتزال تطيف بالرؤوس . لقد كان من إعجاز القرآن أن يجمع هؤلاء الذين قطعوا الدهر بالتقاطع على صفة من الجنسية لاعصبية فيها إلا عصبية الروح إذ أخذهم بالفطرة حتى ألف بين قلوبهم ، وساوى بين نفوسهم ، فجعل منهم أمة تسع الأمم بوجهها . ومن هذا المعنى نشأت الجنسية العربية ، فإن القرآن بدأ كما علمت بالتأليف بين مذاهب الفطرة اللغوية فى الألسنة ، ثم ألف بين القلوب على مذهب واحد ، وفرغ من أمر العرب فجعلهم سبيلا إلى التأليف بين ألسنة الأمم ومذاهب قلوبها ، على تلك الطريقة الحكيمة التى لايأتى علم التربية فى الأمم بأبدع منها .

إن المرحوم الاستاذ الرافعى يرى أن اللغة هى العامل الأول فى ارتباط الناس بعضهم ببعض . فإن الأمم إن لم تكن لها جامعة لسانيّة ، لايجمعها

الدين ولاغير الدين إلاّ جمع تفريق ، وجمع التفريق هذا هو الذى يشبه الاجتماع فى الأسواق على البياعات وعروض التجارة ونحوها ، فإن سوق الأمم تتاجر فيها الأديان والأهواء . فبقاء القرآن على وجهه العربى ، مما يجعل المسلمين جميعا على اختلاف ألوانهم ، من الأسود إلى الأحمر ، كأنهم فى الاعتبار الاجتماعى وفى اعتبار أنفسهم جسم واحد ينطق فى لغة التاريخ بلسان واحد . أن من أعجب مايروعنا من أمر الجنسية العربية فى القرآن ، أنها تأبى إلاّ إن تحفظ على أهلها تلك الصفات العربية ، من الأنفة والعزة والصوت والقلب ، وما يكون من هذا الباب الاجتماعى الذى لايزال يفتح للشعوب عن مقاصير الأرض .

دعى بعض رجال السياسة والدين إلى قيام (الدولة الإسلامية) ، وهم يعتبرونها شاملة كافة الأقطار التى فتحها العرب فى فجر الإسلام ثم حكمتها الدولة العباسية فى أوجها ، ثم التى انتشر فيها الإسلام فأصبح دين أغلبية السكان ، ويدعون إلى قومية جديدة هى (القومية الإسلامية) .

إننا نسأل هؤلاء الدعاة المتفائلين : هل هناك تمازج فكرى ، وتقارب عاطفى ، وتعاون عملى بين مئات الملايين من البشر المقتفين للإسلام ، وذلك لرفع مستواهم وتنظيم شئونهم ، ومؤاخاة سائر البشر فى بناء عالم واحد ؟

إنهم يريدون إعادة (الدولة الإسلامية) ، فهل مازالت مقومات هذه

الدولة القديمة حتى الآن ؟ سواء عند الحكام أو المحكومين ؟ إننا لو حاولنا استعادة معلوماتنا عن خلفاء الدولتين الأموية والعباسية ، فلا نجد بينهم من تفهم روح الإسلام وطبّق تعاليمه سوى عمر بن عبد العزيز ، ثم جاء بعد الدولة العباسية دويلات تعتمد على قبائل بويهية وسلجوقية وتركية وعثمانية ، وهى دويلات إسلامية اسما ، ولكن رجالها لم يفهموا مطلقا روح الإسلام ومعانيه .

إن مقوّمات (الدولة الإسلامية) غير موجودة مطلقا . فأندونسيا أقرب فى اتجاهاتها السياسية والاقتصادية إلى الهند منها إلى الباكستان ، وهذه بدورها أقرب فى محالفاتها العسكرية إلى الولايات المتحدة منها إلى أفغانستان ، وتركيا بعيدة عن العرب ناقمة عليهم . هذا بجانب الصراع العنيف بين أتباع المذاهب الإسلامية ، وخاصة بين الشيعة والسنيين .

وهناك آخرون قد قلّبوا صفحات التاريخ فأعجبتهم دولة محمد ، ودولة الخلفاء الراشدين ، وأعجبهم كيف استطاع محمد وخلفاؤه الراشدون أن يرفعوا من شأن العرب المسلمين ، ثم قارنوا بين حالة العرب السالفة وحالتهم الآن بما هم عليه من انقسام وانحلال وتنابذ ، ورأوا أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ العالم العربى هو العودة مرة أخرى إلى الماضى ، وإلى تطبيق أحكام الإسلام وجعله دستورا للعرب . ويرون أن حاكم العرب يجب أن يكون خليفة ، لأنه كان فى صدر الإسلام كذلك ، ويجب أن يبايعه الناس حتى يصبح حكمه شرعيا .

ويجب أن يكون القانون مستمدا من أفكار مالك وأبى حنيفة وغيرهما من الفقهاء ، ويجب أن تقوم الحياة الاقتصادية على الزكاة ، وهكذا . ولكننا نقول لهم إن الإسلام ليس صلاة وصوما وشعائر ، وإلّا كان محمد قد أمضى حياته متعبدا فى غار حراء ، ولم يقضها فى كفاح وجهاد ونضال . بل إن الإسلام دين ودنيا . ونقول لهم أيضا ، إنه لايمكن لنا ونحن فى النصف الثانى من القرن العشرين أن تخضع نظمنا الاقتصادية والاجتماعية والعلمية لآراء وأفكار رجال من مجتمعات قد اندثرت واختفت ، فتكون مجتمعاتنا الحديثة صورة طبق الأصل عن تلك المجتمعات القديمة ، وهى تفصلها عنها عدة قرون .

يرد كيلر فى كتابه (القضية العربية فى نظر الغرب) على هؤلاء بقوله : ليس الإسلام مجموعة من العقائد الدينية فحسب ، بل هو نظام مدنى خاضع لقوانين دقيقة ، أنزلت فى القرآن ويدعمها الفقه . ويجب أن نفرّق دائما بين مفهومنا للوحدة العربية التى تعنى وحدة الشعوب العربية ، وبين الوحدة الإسلامية التى تعنى وحدة الذين يدينون بالإسلام ، لأن الفتح العربى هوالذى نشر الإسلام . وإذا كان العرب بأكثريتهم يعتنقون الإسلام ، فليس معنى هذا أن جميع المسلمين هم عرب . وينتهى كيلر إلى رأى حاسم فيقول : ومهما يكن الأمر فلن يكون الدين الإسلامى العامل الرئيسى للوحدة العربية إلا بمقدار مايمكنه أن يجمع بين العروبة والإسلام .

قام نقاش عنيف حول الجامعة العربية والجامعة الإسلامية ، بين عالمين جليلين ، هما الأستاذ محمد شفيق غربال المدير الحالى لمعهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية والأستاذ ساطع الحصرى المدير السابق للمعهد ، وكلاهما من أبرز المشتغلين بالقضايا العربية .

نشر العالم الجليل الأستاذ شفيق غربال فى مجلة الهلال فى عددها الصادر فى أول يناير ١٩٥٥ مقالا بعنوان (الجامعة الإسلامية واتحاد العرب). وخلاصة المقال القيم أنه « لاتعارض بين العمل للجامعة الإسلامية والعمل لاتحاد العرب، فالعملان يصدران عن الثقافة الدينية والتاريخية و يستهدفان مصالح مشتركة محققة » . وجاء فى المقال : الإسلام دين وجامعة وثقافة ، والعروبة صورة خاصة من الجامعة الإسلامية والثقافة الإسلامية . هل يوجد تعارض بين الحركة العربية والجامعة الإسلامية ؟ وهذا على اعتبار أن الحركة العربية مما يقوم على أساس العصبية القومية اللادينية ، وأن الجامعة الإسلامية تقوم بحكم الاسم على الأساس الدينى ؟ .

رأى الأستاذ شفيق غربال أن العروبة لم تنشأ عن العصبية ، بل نشأت عن فعل عوامل طارئة ، كان من آثارها شطر العالم الإسلامى إلى شرق أقصى يقع فى شرق العراق ، وإلى وسط يمتد من العراق إلى مصر ، وإلى غرب يقع غربى مصر ، وهذه العوامل هى الحروب الصليبية ، واكتساحات

التتار فى الشرق ، و إجلاء المسلمين عن الأندلس ، ثم مهاجمة المغرب ، ثم حركات التطويق البحرية الكبرى التى أملكت الأوروبيين آسيا والأقاليم العربية .

ثم يذكر الأستاذ غربال أن العرب عندما آن لهم أن يستيقظوا ، تزعمهم مصلحون بعضهم انتسب لأوطان عربية تحكمها الدولة العثمانية مباشرة ، ومنهم من انتسب لأوطان عربية يحكمها العثمانيون اسما . ولكن النفوذ الحقيقى للأوروبيين ، ومنهم من انتسب لأوطان إسلامية غير عربية تخضع للأوروبيين ولذا تأثروا بالفكر الأوروبى . وكان هناك أساسان لخطة الإصلاح : أحدهما اللادينية ، والآخر العصبية القومية . وأدى اختلاف الرجال إلى اختلاف البرامج ونشأت حركات يصفونها بأنها إسلامية وأخرى يصفونها بأنها عربية .

وختم الأستاذ غربال مقاله بقوله : وقد يظن ظان أن اختلاف العرب دينا يقتضى تجريد حركتهم من عنصر الدين ، حرصا على جمع الكلمة ومجاراة لما اتجهت إليه بعض الحركات القومية الحديثة . وهذا وهم ، أولا ، لأنه يناقض ما أثبته التاريخ من مشاركة غير المسلمين فى بناء الحركة العربية التحريرية الاستقلالية ، وثانيا ، لأنه يعطل المصلحة العامة الكبرى ، ألا وهى جمع الكلمة على إصلاح دينى إسلامى مسيحى ، يصد نزعات الالحاد والمادية .

وانبرى الأستاذ الفاضل ساطع الحصرى للرد على هذا المقال فى كتابه (العروبة أولا) فقالا : ألاحظ أن الأستاذ شفيق غربال يربط فى مقالته هذه

القومية باللادينية ، وينعت القومية باللادينية ، ويجنى بذلك على القومية وعلى القوميين . لأن الفكرة القومية لاتتضمن إنكار الدين أواستنكاره بوجه من الوجوه ، فربطها باللادينية يشوه معانيها . إن النضال بين رجال الدين ورجال العلم استمر طويلا ، وانتهى فى آخر الأمر بانتصار رجال العلم على أساس تقرير « استقلال العلم عن الدين » . إن الدعوة إلى الجامعة العربية الإسلامية شىء ، والدعوة إلى الاصلاح الدينى شىء آخر . إن أهم الأمور التى يجب أن تؤاخذ عليها مقالة الأستاذ غربال هو عدم تقريرها للدور الخطير الذى تلعبه اللغة فى حياة الأقوام وثقافتهم . فإن الأستاذ غربال لايعير أقل اهتمام لأمر اختلاف اللغات بين البلاد الإسلامية .

ولنترك هذا النقاش الذى دار بين العالمين الجليلين ، لنقول إن الجامعة العربية والجامعة الإسلامية متصلتان اتصالا وثيقا ، لكنهما ليسا شيئا واحدا . تتصل الجامعتان على اعتبار أن الإسلام دين عربى ، فقد جاء الإسلام العرب على يد رجل منهم ، وكانوا يومئذ قبائل متفرقة متنافرة ، فجاءها الرسول العربى بالإسلام ـ قرآنا عربيا خالصا ـ وظهرت النظم الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسة والاقتصادية التى شرعها الدين العربى الحنيف ، وخلق الإسلام من المسلمين أمة .

إن هناك عروبة ، كما أن هناك إسلاما ، كما أن هناك نصرانية ، أى

أن العروبة عقيدة لها مبادؤها وشرائعها التى تنعكس عن الروح العربية الأولى ، وتمثلها تمثيلا صادقا صحيحا ، ثم توجه فى ذات الوقت سلوك العربى والمستعرب على السواء ، وتدفع بهما نحو مثل عليا قومية ثابتة ، أو هى ، بعبارة أخرى ، جملة معان ومزايا وأخلاق نشأت فى فطرة العربى ونمت فى تربة خصبة ومناخ خاص هما : الوطن العربى .

ولكن هذا الاتصال الذى أشرنا إليه آنفا بين الجامعة الإسلامية والجامعة العربية لا يجعلنا نعتقد أن الجامعتين شىء واحد . ففى العرب مسلمون ، وغير مسلمين . كما أن الدين غير القومية ، وإلا لأصبح كل مسلم على وجه الأرض عربيا لأنه مسلم ، وأن يكون المسيحيون كلهم على وجه الأرض أبناء قومية واحدة ، لأنهم مسيحيون . وهذا مستحيل . والحقيقة أن الدين لم يعد له أثر فى تكوين الأمم أو علاقاتها ببعضها ، وما دام الانسان مفطورا على التفاخر بأصله وقومه ، وما دام لكل قوم مميزاتهم وصفاتهم ، فستظل الأسس القومية ، دون الدين ، أثبت الأسس لقيام الأمة والدولة . وكلما ارتقت الأمم علميا وعقليا واجتماعيا أدركت هذه الحقيقة .

إننا لا نعارض مطلقا قيام (جامعة إسلامية) بين الأمم والشعوب الإسلامية . ولكننا ندعو إلى التفريق بين (الأخوة الدينية) و (الرابطة السياسية) كما ندعو إلى أن تكون (الجامعة الإسلامية) وسيلة لتدعيم

(الجامعة العربية) لاوسيلة لهدمها . كما ندعو إلى القضاء على تلك الفكرة القائلة بأن هدف الجامعة الإسلامية هو القضاء على الجامعة العربية . و إن كنا نعتبر أن الجامعتين ليستا شيئا واحدا ، إلاّ أنهما شقيقتان يجب عليهما أن تتعاونا لصالح الإسلام والعروبة والبشرية عامة .

٤ ـ القومية العربية والحضارات الأجنبية

إن العرب ، بل والمسلمين ، يكرهون الأجانب ، ليس لأنهم أجانب ، بل بسبب تجاربهم مع هؤلاء الأجانب وبسبب خوفهم منهم . لقد كان العرب يسيرون مع دول أوربا فى طريق واحد ولفترة طويلة ، منذ قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر . بل إن العرب ثاروا على الدولة العثمانية الإسلامية وانضموا إلى أعدائها ، الحلفاء . ولكن سرعان مانسى هؤلاء الحلفاء وعودهم وبدأوا يرثون الدولة العثمانية ويقتسمون الأقطار العربية . وقاسى العرب الكثير من ظلم وفساد الإدارة البريطانية والفرنسية الاستعمارية . ورغم ذلك ، فقد وقف العرب مرة أخرى بجانب الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن الحلفاء كافأوا العرب بأن ضحوا بالمصالح العربية فى سبيل الشرذمة الإسرائيلية الصهيونية فلا عجب أن العرب لايحبون هؤلاء الأجانب .

لقد كانت نهضة أوربا فى القرون الأولى ، كما هى فى العصور الأخيرة نتيجة الاقتباس عن حضارات الشرق . فإن الإغريق اقتبسوا كثيرا من حضارتهم من المصريين والفينيقيين والكلدانيين والفرس . وعرف الرومان الحياة المدنية خلال صراعهم مع القرطاجنيين . وأدى احتكاك الأوروبيين بالعرب فى الأندلس إلى اقتباسهم الحضارة العربية ، ثم جاءت المرحلة الأخيرة من الاقتباس خلال الحروب الصليبية .

ولكن الفتح العثمانى للبلاد العربية والشرقية أدى إلى نهاية مرحلة اقتباس الأوروبيين من الحضارات العربية والشرقية . فقد بدأت فى هذه البلاد عهود ظلام وجهل . فقد وضعت الدولة العثمانية حاجزا منيعا يفصل العالم العربى عن أوربا خوفا من امتداد أطماع الدول الأوروبية إلى هذه الولايات العثمانية . لقد بدأ الاستعمار العثمانى للعالم العربى فى سنة ١٥١٦ ، أى فى القرن السادس عشر ، واستمر إلى سنة ١٩١٤ فى القرن العشرين . وهذه القرون كانت قرون النهضة فى أوربا عرفت فيها الانقلاب الصناعى ، وتطور مبادئ الحكم من الاستبداد إلى الديمقراطية ؛ وظهرت الدساتير والمجالس النيابية ، وتطور المجتمع الأوربى نتيجة ظهور المبادئ الاجتماعية الجديدة .

ثم بدأ غزو الحضارات الغربية للعالم العربى بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر. فقد صحب نابليون بونابرت معه ١٤٦ عالما فى شتى العلوم والفنون والآداب . ورغم قصر مدة بقاء الحملة الفرنسية فى مصر ، وهى ثلاث سنوات ، فقد بحث هؤلاء العلماء أحوال العالم العربى على أسس علمية لأول مرة . ويكفى أن هذه الحملة أدخلت الطباعة فى العالم العربى .

جلب الفرنسيون إلى مصر والشام طريقتهم فى المعيشة ، وأسلوبهم فى الحياة ، وحضارتهم الخاصة . واصطدمت هذه الحضارة والمدنية بمدنية السكان الأصليين وطريقتهم فى الحياة . وقد ازداد الخلاف حدة عندما أضاف الفاتحون إلى حضارتهم جوانب مادية ووسائل الترف . وكان تأثير الأساليب الأوروبية

على السكان تأثيرا سيئا ، مفسدا للآداب ، ولذا كان من الطبيعى أن يبذل هؤلاء السكان جهدهم لصد تيار هذه الحضارة الأوروبية .

شمل صراع العرب للحضارة الأوروبية كل مظاهر الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، بل والدينية . واتخذ هـذا الصراع والصدام أشكالا مختلفة متنوعة : أولا رأينا حركات سياسية عديدة تصطبغ دائما بصبغة دينية . ثانيا شهدنا حركات وطنية ظهرت نتيجة للضغط الأوروبى ثالثا رأينا نمو الصناعة الوطنية ، ثم رابعا لمسنا المقاومة الوطنية للحكم الأجنبى

نمت هـذه الحركات السياسية والوطنية المختلفة خوف السكان من كل شىء أجنبى ، سواء الأفكار أو الناس ، وخاصة الخوف من الحضارة والثقافة الأوروبيتين اللتين تمثلان فى نظرهم المستعمر الأوروبى الذى يناضلونه أو يحاربونه . ونتيجة لارتباط الحضارة الأوروبية بالحكم الاستعمارى الأوروبى المقيت فى أذهان عرب مسلمى شمال إفريقيه ـ مثلا ـ فقد ولّدت هـذه الحركات كرها للأجانب عامة وللأوروبيين خاصة ، بصرف النظر عن كل مايمت إلى الحضارة والثقافة الأوروبية .

كانت الحضارة الأوروبية سلاحا ذا حدين ، فقد فتحت آفاقا واسعة أمام العرب ، لكنها أدت فى نفس الوقت إلى انهيار الروح العربية الأصيله ولكننا لانلقى التبعة على عاتق الأوروبيين فى انهيار الروح العربية ، بل إن العرب

وحدهم هم المسؤولون عن وجود هذه الهوة بين ماضيهم وحاضرهم . لقد فشلت الحضارة الأوروبية فى إقرار السلام وتوطيده ، بل إن تقدم العلوم أدّى إلى الحروب لا إلى السلام بل إن إفلاس المثل العليا ليس إلا نتيجة منطقية للحضارة الأوروبية القائمة على عبادة المادة . بل إن الحضارة الأوروبية — ركزت كل جهودها وثمار فكرها فى ناحية واحدة هى (الاستقلال) ، بل إن الاتجاهات الحديثة فى السياسة التى أخذت بها الدول الأوروبية للوصول إلى السلام ، إنما هدفها الأسمى هو ضمان بقاء (الاستقلال) وتنظيمه .

إن العالم العربى الآن أمام غزو حضارى أجنبى ، فما ذا يكون موقف القومية العربية من هذه الحضارات الأجنبية ؟ هل يفتح العرب أبوابهم وينهلوا من هذه الحضارات ؟ أم يلجأ العرب إلى سياسة الانكماش والانزواء ؟

يرى البعض أن يساير العرب الدول الأوروبية والأمريكية فى حضاراتها ، فقد بهرهم التقدم الحضارى فى مختلف العلوم والآداب والفنون ، فدعوا إلى أن ينهل العرب من مناهل هذه الحضارة ، فيقتبسوا من الأوروبيين والأمريكيين نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

نسى هؤلاء أن الحضارة الأوروبية العظيمة التى بهرت أنظارهم فى القرن العشرين إنما قامت على أساس الحضارة العربية الزاهرة التى سادت طوال العصور الوسطى وقت أن كان ظلام الجهل والتأخر يخيم على القارة الأوروبية .

وأن هـذا الأساس نفسه يصلح لقيام حضارة عربية فى القرن العشرين أعظم من الحضارات الأوروبية والأمريكية .

إن الانغماس فى الحضارة الأجنبية يجعل الأمة العربية (أمةشحاذة) وهذا لا نرضاه بل نأباه . أن تركيا خير مثال لذلك ، فأنها بعـد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية أنغمست فى الحضارة الأوروبية والأمريكية ، وابتعدت عن الحضارة الإسلامية والعربية ، فقد كرهت تركيا أن يقال إنها من آسيا لتصبح قطعة من أوروبا ، وكأنها أرادت أن تغيّر من التاريخ والجغرافيا . وفى هـذا الانغماس ، لم تـكن تركيا أكثر من شحاذة ، تأخذ من الحضارات الأجنبية كل شىء ، ولا تعطيه مقابلة شيئاً .

أننا ندعو العرب إلى تمسكهم بالحضارة العربية التى عرف الأجانب لها قدرها فأقبلوا ينهلون منها وأتخـذوها أساسا أقاموا عليـه صرح الحضارات الأوروبية والأمريكية . فهى حضارة عربية عريقة ، متينة الأسس ، قوية البينان . وإذا رأينا أن نستعين ببعض نواحى الحضارات الأجنبية ، فعلينا أن نلجأ إلى (الاقتباس) لا إلى (الانغماس) وعلينا أن نتبع فى ذلك مبدأ الحياد الإيجابى بين الحضارات المختلفة أومعبارة أخرى نتمسك بمبدأ الحياد الحضارى ، والله ولى التوفيق ، والمجد والعزة للعرب .

تم بحمد الله تعالى